(٢٩)

عبد اللطيف النشار
عميد شعراء الاسكندرية

www.alkottob.com

لصدور ديوانه عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب» معنى إنسانى كبير . . فقد عاش حياته الطويلة كلها فى الظل ، لا لأنه كانت تنقصه الموهبة الأصيلة التى تتيح له الشهرة والتألق ، ولا لندرة انتاجه فهذا الديوان الكبير (أكثر من ٤٤٠ صفحة) ليس إلا قطرة فى محيط إنتاجه الغزير الذى مازال موزعا بين مختلف الصحف والمجلات ومقتنيات الأهل والأصدقاء . .

كان شاعرا موهوبا ، وناثرا مجيدا ، ومترجما بارعا لا يستعصى عليه نص إنجليزى . . وما أكثر ما ترجم من روائع الشعر الإنجليزى شعرا عربيا رصينا ، لا أثر فيه لتعقيدات الترجمة وافتعال تركيباتها . ومن المعروف أن ترجمة الشعر شعرا هى أشق أنواع الترجمات فى كل الآداب . .

لماذا اذن لم يلمع ولم يحتل مكانته بين كبار أدباء جيله . . جيل العقاد والمازنى وطه حسين والحكيم ويحيى حقى ، مع أنه نشر إلى جوارهم فى كبريات المجلات الأدبية التى كانت من أهم أسباب شهرتهم وذيوع صيتهم ، «كالسياسة» «والرسالة» «والثقافة» ؟

ترى هل لأنه كان مخلصا للاسكندرية ، مسقط رأسه ، مصرا على الإقامة بها معظم سنى عمره ، ولم يهجرها إلى العاصمة ، حيث تتركز الأضواء وعوامل الشهرة . . لم ينتقل إليها إلا فى أواخر حياته ، بعد خروجه إلى المعاش ، ليعيش إلى جوار وحيدته «رفيعة» التى عينت فى وزارة الثقافة بالقاهرة ، قبل انتقالها مع زوجها إلى لندن . .

www.alkottob.com

أم لأنه كان خجولا بطبعه ، منطويا على نفسه ، يؤثر العزلة ، ولا يتقن استخدام فن العلاقات العامة فى الدعاية لنفسه ولإنتاجه . . أم لأنه وزع طاقته بين الشعر والنثر والترجمة ، واستأثرت الترجمة بالجانب الأكبر من جهوده ، وفضل المترجم مازال منكورا فى بلادنا مهما عانى وأبدع ؟!

تل من الكتب

أيا كان السبب الحقيقى لتلك الظاهرة الغريبة ، فلاشك أن عبد اللطيف النشار عاش حياته كلها بعيدا عن الأضواء ، غير معروف إلا لأدباء جيله ، ومثقفى الإسكندرية ، حيث ظل ينشر إنتاجه الأدبى فى صحفها المحلية بانتظام غريب ، وبخاصة فى جريدتى «البصير» «والسفير» ويشارك فى منتدياتها الأدبية ، واحتفالاتها بمختلف المناسبات القومية والمحلية ، حتى أصبح من بين معالمها الثقافية البارزة . . وإن لم يصل صيته إلى العاصمة التى ظلت تحتكر الشهرة والمجد لمن يقبل شروطها ، وأولها أن يهجر مسقط رأسه ويقيم بها . . ولذلك اعتبرت أن صدور ديوانه أخيرا ، ولو بعد وفاته ، يمثل معنى إنسانيا وحضاريا كبيرا . . معنى الوفاء لأديب لم يتح له أن ينعم بالشهرة فى حياته . . ومعنى التقدير للمجهد الأصيل مهما طال الزمن ، وتكاثفت المحبطات . . وهو ما يبعث فى نفوس العاملين الجادين شيئا من الأمل والتفاؤل بأن جهودهم لابد أن ترى النور يوما ، وتجد التقدير . . ولو بعد حين . .

كان لابد أن ألقاه ، وأن تتوثق الصلة بيننا ، فأنا من أبناء

www.alkottob.com

الإسكندرية قضيت فيها كل طفولتى وشبابى ، وشقيقى الأكبر الكاتب والناقد الصحفى محمد دواره كان من أصدقائه المقربين . . تزاملا سنوات عديدة فى عدة صحف ومجلات . . «الثغر» و «وادى النيل» ، فى العشرينات والثلاثينات ، ثم «دنيا الفن» فى الأربعينات . . وعن طريقه تعرفت به والتقيت به عدة مرات . .

وحينما التحقت بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ؛ جامعة الإسكندرية كانت أسرة القسم تقيم العديد من الندوات والاحتفالات والمهرجانات وكان رئيس القسم أستاذنا محمد خلف الله أحمد يحرص على دعوة كبار أدباء الإسكندرية وشعرائها ليشاركوا فى ذلك النشاط الأدبى . . وكان «النشار» من ناحيته حريصا على تلبية تلك الدعوات ، وإنشاد أحدث قصائده فيها ومن ثم تجددت لقاءاتى به . .

وتشاء الظروف بعد ذلك أن أسكن بعد زواجى بشارع الرصافه بحى محرم بك ، قريبا من بيته بشارع أمير البحر فى نفس الحى . . فتوثقت صلتنا أكثر وأكثر . . فما من مرة عدت فيها فى ساعة متأخرة من الليل إلا وجدته ساهرا فى مقهاه الأثير بشارع « محرم بك » قرب مخزن الترام . . . مكبا على القراءة والكتابة ، ولا يمكن أن يدعنى ـ مهما كنت مرهقا ـ دون أن أشاركه جلسته ساعة أو أكثر . . نقضيها فى مناقشات أدبية حامية . . نتمها فى الطريق إلى بيتى بعد أن يغلق المقهى أبوابه ؟

لا أذكر الآن الموضوعات التى كنا نخوض فيها ، ولكنى أذكر حماسته الشديدة لأفكاره وآرائه المتجددة بتجدد قراءاته الغزيرة وتأملاته العميقة . . كان يتابع أحدث الصحف والمجلات العربية

www.alkottob.com

والإنجليزية ، ويقتنى ثروة من الكتب ، فلم يكن يبخل بأى مبلغ لشراء الكتب الجديدة والقديمة . . ويضع أمامه على مائدة المقهى وفى جيوبه عشرات الأقلام من كل نوع ولون . .

حكى بعض عارفيه أن أباه أعطاه ذات يوم فى شبابه مبلغا كبيرا من المال ليدفعه مهرا للعروس التى خطبها ، فإذا به يفاجأ به عائدا بعد ساعات وأمامه عربة نقل كبيرة يجرها حمار ، وفوقها تل كبير من الكتب اشتراها بمهر العروس !

تواضع النحلة

فى كل مرة لقيته كنت أجده متحمسا لفكرة جديدة غير الفكرة التى كان متحمسا لها بالأمس . . وما أقل ما حقق من تلك الأفكار الطموحة والمشروعات الخيالية . . وما أندر ما حدثنى عن ماضيه وما حققه فيه من انتصارات وأمجاد ، شأن غالبية الأدباء والشعراء . حتى صغار السن منهم . ولكنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه لم يقل بعد شيئا هاماً يستحق البقاء والخلود . . ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى تدفق إنتاجه وغزارته واستمراره حتى آخر سنوات عمره ، بالرغم من تجاوزه السابعة والسبعين . . غيرأنى أعتقد أن هذه الاستهانة من جانبه بإنتاجه الأدبى كانت من أهم أسباب استهانة الغير به .

ومع ذلك فإنى أشهد أنى لم أسمعه مرة واحدة يشكو من خمول الذكر أو تجاوز الشهرة له . ولم أحس أنه عانى من ذلك بأى شكل . . بل كان يعمل بجد وإصرار وحماسة ، كأنما ليحقق وجوده ، كالنحلة التى

www.alkottob.com

تفرز ، عـلا ، لأن هذا هو عملها الطبيعى ومبرر وجودها ، لا تنتظر عليه جزاء أو ثناء من أحد . .

فى كل يوم له شعر جديد . . يقنع بانشاده فى أى منتدى يدعى إليه ، فإذا لم يدع قنع بقراءته على اصدقاء المقهى . . وقد ينشره بعد ذلك . . أو لا ينشره ، فى إحدى المجلات الصغيرة الخاملة نظير أجر ، أو دون أجر لا يهم . . لذلك فقد أفادت من انتاجه مجلات عـديدة مستغلة قناعته وتواضعه ، فتبخس الأجر ، أو تتجاهله . .

وكـان محفوظـه من الشعر العـربى والإنجليزى كبيـرا يكـثر من الاستشهاد به فى أحاديثه . . أذكر مناسبات عديدة كان يسمعنى فيها قصيدة إنجليزية لأحد مشاهير الشعراء ، ثم يتبعها بترجمته الشعرية لها ، قد ينشد ترجمة للأبيات نفسها لشاعر آخر ، ليقارن بعد ذلك بين الترجمتين دون أن يهفو أو يتعثر . فأعجب لذلك الشيخ الموهوب الذى لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية كيف استطاع أن يجيد اللغتين فهما ونطقا على هـذه الصورة التى تفـوق بها عـلى غالبيـة أساتـذتى فى الجامعة

قمة الود .. وقمة النفور

لا يمكن أن أتحدث عنه دون أن أذكر تلك الصورة القلمية البارعة التى رسمها له صديقه يحيى حقى فى مقال كتبه عنه

«إذا ذكرته باحثا عن خلقته التى أريدت له فى الحياة لم يمثل لذهنى يوم عرفتـه وهو فى ربيـع الشباب ، بـل ايام شهـدته وهـو فى شتاء

www.alkottob.com

الشيخوخة ، حينئذ أستطعت أن أقول إنني عرفته ، هو الآن هو ، أما من قبل فكانت مراحل عمره خطوطا تجريبية تريد أن تتجمع لترسم صورته الصادقة . . ليس هو هو إلا حين أصبح له ، في شيبته البيضاء ، فم يروعك تعبيره الأليم عن العطش ، لا ماء في الأرض يرويه ، لم يعان منه فجأة ، بل بعد لهثان طويل ، كأنه قضى عمره كله يجري وراء غاية تهرب منه . . السعادة ؟ النجاح ؟ معنى الوجود ؟ لقاء النفس وجها لوجه أمام لقاء وجه الله سبحانه . .

«مكافح وصوفي معا ، هكذا كان ، ونظرة شاخصة حائرة بين أن تعلق بك كالغراء تريد أن تحتويك بود داخل فؤاده ، وبين أن تهملك نفورا منك وتتجاوزك إلى أفق بعيد . كأنما يريد ولا يريد أن يفضي لك بسر مهول ، إنه يلتمس ويرفض معا استجابتك له . لم أرقط مثل هذا الجمع بين قمة الود وقمة النفور ، لا عن عمد ، بل لغلبة حساسية مفرطة»

«ياصر حبا بالعرج !»

وتحدثنا وحيدته «رفيعة النشار» في تصديرها لديوانه عن نشأته وحياته فتقول إنه ولد بدمياط عام ١٨٩٥ ، وورث موهبة الشعر عن أبيه وجده الكبير ، وتعلم في الكتاب حيث حفظ القرآن ، ثم بالمدرسة الابتدائية حيث أتقن اللغة الإنجليزية إذ كانت تدرس بها جميع المواد ، فأهله ذلك للإشتغال بالترجمة في سن مبكرة .«واشتغل بالصحافة أكثر من ستين عاما . وبعد أن تلمح إلى أهم كتاباته تختم حديثها قائلة :

«ورغم تفكيره العميق المتزن ، وآرائه الصائبة المجددة في شتى

www.alkottob.com

ضروب الفن ومناحى الحياة ، فقد كان شديد التواضع والانزواء ، قليل الكلام عن نفسه، غير منصف لها ولا لأدبه وعلمه واطلاعه الغزير . . ولعل لوظيفته الرتيبة المملة فى المحاكم دخلا فى ذلك كبيرا إذ يقول :

«ثلاثون عاما فى المحاكم أفسدت
بيانى . . فأصبحت الغبى المغفلا !»

ويضيف أحمد مصطفى حافظ جامع ديوانه إنه منذ وفاة شريكة حياته انطلق فى بوهيمية محببة إليه (الواقع أن هذا الانطلاق كان إحدى سماته المبكرة) . وقد كان لرحلته الطويلة إلى لندن حيث كانت تقيم وحيدته أبعد الأثر فى تفكيره وانعكس ذلك فى كتاباته وشعره . من ذلك قوله :

«سبعة الأشهر فيها ساعة
ثم مرت . . ولكل منتهاه
وأراني الله فى شيخوختى
ما تمنـاه فؤادى فى صباه
لندن يجهلها أبناؤها
والذى فى أرضه ألقى عصاه
الذى قد جاء فيها دارسا
حصد الهم لنيل (الدكتوراه)
إنما يعرفها مثلى أنا
قارىء يدرك أسرار الحياة
يصعد الأهرام من أسفلها
قارىء وهو يدرى مرتقاه .»

www.alkottob.com

وأصيب بعد عودته الى القاهرة فى حادث تصادم سيارة ترتب عليه اختلال فى مشيته ، فأوحى له ذلك بقصيدة طريفة جعل عنوانها «يا مرحبا بالعرج» مما قاله فيها :

«نحو الشماتين ولا أبتلى
بسملة .. هل ذلكم يعقل ؟!
مادامت الأرؤس فى صحة
فهين أن تبتلى الأرجل
(أبو الوفا) و(المازنى) قبله
كلاهما فى مشيه يحجل
وكنت إذ أمشى يقال انبرى
لا يعرف الريث ولا يعجل
فصرت (تيمور لنك) فى مشيتى
بل علّه فى مشيه أجمل !
وطالما أخطأت فى صحتى
فالآن إذ أغضب لا أركل !..

من الواضح أنه يشير فى البيت الثالث إلى الأدبيين الكبيرين محمود أبو الوفا وابراهيم عبد القادر المازنى ، وكلاهما كان يعرج فى مشيته كالغازى التتارى تيمور لنك .. وفى بيت تال إشارة أخرى إلى الأدبيين الإنجليزيين ولتر سكوت وبيرون ، وكانا مصابين أيضا بنفس العاهة .. وهكذا جمع الشاعر فى قصيدته الذاتية أشهر من أصيبوا بالعرج من بين أدبائنا وأدباء الغرب .

www.alkottob.com

وقارىء الديوان يلمس بسهولة شاعرية النشار المتدفقة ، فما من مناسبة وطنية أو اجتماعية أو فنية أو شخصية إلا وله فيها قصيدة أو عدة أبيات . . حتى لكأنه كان «يغرف من بحر» كما كان القدماء يقولون عن البحترى . . وهكذا جمع الديوان بين نماذج ممتازة من الشعر الوطنى المتأجج حماسة ، والغزلى الذى يميص رقة وشجنا ، والوجدانى الصوفى الحائر ، والفلسفى العميق المتأمل ، بالإضافة الى قدر كبير من المراثى والأهاجى والمداعبات الساخرة . . ووصف الطبيعة . . وبصفة خاصة فى تجلياتها بالإسكندرية . . مسقط رأسه ومرتع أحلامه وصبواته .

ان هذا الديوان الكبير لا يضم كل شعر النشار ، فله ديوانان صغيران نشرهما . منذ أكثر من نصف قرن ، وهما : «جنة فرعون» ، «ونار موسى» بالإضافة إلى قصائده العديدة التى لاتزال موزعة بين صدور الحافظين وعشرات الصحف والمجلات ، غير المشهورة من أهمها ملحمته عن «جهنم» التى عارض فيها كلا من «المعرى» ودانتى ، وللنشار قصائد عديدة مترجمة عن الإنجليزية ، من بينها ترجمة لرباعيات الخيام ، وترجمة لديوان ، «زين النساء» الصوفى من شعر أميرة فارسية .

وله مئات المقالات المنشورة فى مختلف الصحف والمجلات ، من أهمها سلسلة بعنوان «حديث الأحد» أرخ فيها للأدب العربى لقديم ، وأخرى بعنوان «الأغانى لأبى الفرج الاسكندرانى» ، كما ألف عددا من

www.alkottob.com

المسرحيات القصيرة ، وترجم كما هائلا من القصص والمسرحيات ، • ٢٥ رواية من روائع الأدب العالمى ، منها «كوخ العم توم» للأمريكية هاريت بيتشر ستو ، و«الأبله» للروسى دستويفسكى ، و« أنا كارينينا » لتولستوى ، و «حاجى بابا الأصفهانى» ، و «حاجى بابا فى لندن» ، و«إيباشيا» للانجليزى تشارلز كنجزلى ، و«خالتى» و «وكيل البريد» للهندى طاغور . . . وغيرها

ترى هل يقدر لكل هذه الأعمال أن تجمع من مظانها ، ويعاد نشرها لنفع الأجيال ، ووفاء وتقديرا لجهود العاملين المخلصين المتواضعين ، وما أكثرهم فى أدبنا . . وعبد اللطيف النشار ليس إلا مثالا صارخا لواحد من أبرزهم وأكثرهم إخلاصاً للأدب والثقافة .

(١٩٧٨)

www.alkottob.com